الرسالة

(تيطس ٢: ١١–١٤؛
٣: ٤–٧)

يا ولدي تيطُس لقد ظهرتْ نعمةُ اللهِ المخلِّصةُ لجميعِ الناس* وهي تُؤدِّبنا لننكر النفاقَ والشهواتِ العالميَّةَ فنحيا في الدهرِ الحاضرِ على مقتضى التعقُّل والعدل والتقوى* مُنتظرينَ الرجاءَ السعيدَ وظهورَ مجدِ إلهنا العظيمِ ومخلِّصنا يسوعَ المسيح* الذي بذلَ نفسهُ لأجلِنا ليفتدينا من كلِّ إثمٍ ويُطهّرَ لنفسه شعباً خاصاً غيوراً على الأعمالِ الصالحة* فلمَّا ظهر لُطفُ اللهِ مخلِّصنا ومحبّتُه للناس* خلَّصنا هو لا لأعمالٍ في البّر عملناها نحنُ بل على مقتضى رحمته بغسل الميلاد الثاني وتجديدِ الروح القدس* الذي أفاضَه علينا بسخاءٍ بيسوعَ المسيحِ مخلّصنا* حتى إذا تبرَّرنا

نعمة الله المُخَلِّصة لجميع الناس

في الآيات القليلة التي تسبق مُباشَرَة نصّ الرسالة المتلو علينا اليوم، يُحَمّل الرسول بولس تلميذَه تيطس مجموعة توجيهات تربويّة في الأخلاق والسلوكيّات اللائقة بالمؤمنين، لكلّ فئة من فئات المجتمع حتّى العبيد الذين يحضّهم الرسول على أن يكونوا «غَير مُناقضين، غير مُختَلِسين، بل مُقَدِّمين كلّ أمانة صالحة، لكَي يزيّنوا تعليم الله مخلّصنا في كلّ شيء» (تي ٢: ١٠). قد تبدو توجيهات الرسول بولس للعبيد مُستَغرَبة، ذلك أنّ العبد، بفعل عبوديّته، هو مسلوب الإرادة كلّيًّا، لا رأي له ولا قرار في شيء، حتّى في أخلاقه وسلوكيّاته. إذًا، كيف يبرّر الرسول بولس هذه التوجيهات، ويعتبرها واجبًا وحقًّا، لا سيّما أنّه يحضّهم على أن يبلغوا السلوك اللائق الذي «يزيّن» تعليم الله؟ يقول الرسول: «لأنّه قد ظهرت نعمة الله المخلّصة لجميع الناس». إذًا، كما أُعطي الخلاص الآتي من نعمة الله لجميع الناس من دون استثناء، هكذا لم يعد أحد مُعفىً من أن يعكس، في حياته اليوميّة، مفاعيل هذه النعمة. لعلّه خَتَمَ بالعبيد تحديدًا ليعلّمنا اليوم، وعلى مدى الأزمان، أنّه بقدر ما يلتزم الإنسان تعاليم الله «المُخلّصة» يكون حُرًّا حتّى ولو كان عبدًا. أمّا من يتنكّر لتعاليم الله ويبتعد عنها فهو عبدٌ، مسلوب الإرادة، لا رأي له ولا قرار.

العدد ٢٠١٩/١

الأحد ٦ كانون الثاني

عيد الظهور الإلهي

لقد حظينا، في المعموديّة، بنعمة الله التي تعلّمُنا وتهدينا في سبيل الخلاص، لكن ألا يتوجَّب علينا على الأقلّ أن «نعترف بالنعمة ولا نُخفي الإحسان»، كما تقول صلاة تقديس الماء في سرّ المعموديّةِ المُقَدَّس؟ ذلك أنّ «نعمة الله المُخَلِّصة» هذه، لا يقتصر فعلُها على تنقية الإنسان من خطايا أو ترسّبات سابقة، بل تنشئ فيه نظام مَناعة يحصّنه ضدّ كلّ خطيئة مستقبلَة. لكن، لا بدّ هنا من التشديد على أنّ نعمة الله المخلّصة تعلّم وتهدي كما قلنا، لكنّها لا تُسَيِّر. غاية خلاص الله أن نتحرّر، لا أن ننتقل من عبوديّة إلى أخرى. حرّيّة إرادتنا مُصانة عند الله صونًا كاملًا. يُعلن المُقبِل إلى

المعموديّة المُقَدَّسة، بحرّيّة إرادته، رَفضَه لكلّ ما ليس لله. بعد المعموديّة، يأتي انتقال هذا الإعلان من النيّة والإرادة إلى حيّز التنفيذ، و«نعمة الله المُخلِّصة»هي التي «تؤدّبنا». العبارة، كما قصدها الرسول هنا، معناها تربويّ، أي تعلّمنا كيف «ننكر»، كيف نُعادي في أنفسنا، كلّ الرذائل وفي طليعتها «النفاق» بحسب ترتيب الرسول. معنى النفاق هنا هو الجحود والخُبثُ والميوعة في الإيمان، حتّى الجبُن والتردّد في التزام تعاليم الله. تُعلّمنا النعمة أيضًا، ونحن عائشين في العالم، كيف نُميّز الشهوات الضارّة، كالطمع والأنانية والكبرياء المُقَنَّعة بحسن التدبير واحترام الذات والكرامة، وغيرها من الأهواء القاتلة للنفس، مهما اختبأت خلف أفكارٍ حميدة. أعطيت لنا «نعمة الله المُخلِّصة» بالمسيح لكي نصبح فعلًا قادرين أن نرفض، عَمَليًّا، العقائد الجاحدة (كلُّ ابتعاد عن الله هو كُفرٌ به) التي تستعبدنا للأرض. هذه النعمة وحدها تخوّلنا العيش «في الدهر الحاضر على مُقتَضى التعقُّل والعدل والتقوى» كما يقول الرسول، أي أن نستنير بالحكمة وحُسن التمييز، والإتّزان، والقُربى الدائمة مع الله. ولا يُغفِل الرسول عن الإشارة إلى «الدهر الحاضر»، ذلك أنّ حياتنا الحاضرة، على هذه الأرض، هي زمن التعلُّم والجهاد والنموّ، أمّا الدهر الآتي فهو زمان الجوائز والحصاد. يقول الرسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «ألستم تعلمون أنّ الذين يركضون في الميدان جميعُهُم يركضون، لكنّ واحدًا يأخذ الجعالة؟ هكذا اركضوا لكي تنالوا» (١كو ٩: ٢٤).

هذا هو «الرجاء السعيد» الذي ننتظره، بحسب الرسول بولس، أي الإكليل المُعطى لمن جاهد في هذه الحياة جهادًا يُرضي الله، نعني مَن كانت حياتهِ مرآةً لمفاعيل «نعمة الله المخلِّصة» كما أشرنا سابقًا، يوم يظهر «إلهنا العظيم ومخلّصنا يسوع المسيح» بمجده ليمنح كلّ واحد بحسب أعماله (راجع مت ٢٥: ٣١-٤٦). لقد خلّصنا المسيح في حضوره الأوّل آخذًا بشريّتنا، غاسلًا بدمه دَنَس معاصينا، فكم بالحريّ سيفعل من أجلنا، إذا رآنا ماثلين أمامه مزيَّنين بالفضائل؟! حرَّرَنا المسيح بالفداء التنازليّ الطوعيّ ليس من خطيئةٍ أو بضع خطايا، بل من «الخطيئة» عمومًا ومن جميع مفاعيلها السابقة واللّاحقة. ألا يستحقّ منّا، نحن الذين لبسناه بالمعموديّة، ألاّ نعود بإرادتنا إلى الخطيئة مجدَّدًا؟ ألا يستحقّ منّا أن نسعى بكلّ ما أوتينا من عزم وإرادة وقوّة، ونعمته المخلِّصة تعلّمنا وتهدينا، أن نسعى لأن نمتثل لأوامره ونحفظ عهده لنكون له «شعبًا خاصًّا غيورًا على الأعمال الصالحة» (راجع خر ١٩: ٥)؟ ألا يستحقّ منّا أن نكون غيورين على الأعمال الصالحة، أي ساعين بعزم وشجاعة وحماسة إلى اقتناء الفضائل والعمل بمقتضاها؟ لا شكّ في أنّ النعمة المُخلِّصة التي شَفَتنا، والتي تعلّمنا وتهدينا، قد منحنا إيّاها الله مّجانًا، لكنّ الغَيرة على الأعمال الصالحة، بصدق وأمانة وشجاعة، هي مرهونة بإرادتنا الحرّة حصرًا. يعلّمنا سفر الحكمة: «إنّ الحكمة لا تلج النفس الساعية بمكر، ولا تحلّ في الجسد المستَرقِّ للخطيئة. لأنّ روح التأديب القدّوس يهرب من الغشّ، ويتحوّل عن الأفكار السفيهة، وينهزم إذا حضر الإثم» (حك ١: ٤-٥).

بنعمته نصير ورثةً على حسبِ رجاءِ الحياةِ الأبدية.

الإنجيل

(متى ٣: ١٣-١٧)

في ذلك الزمان أقبل يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه* فكان يوحنا يمانعه قائلاً أنا محتاجٌ أن أعتمد منك أوَأنت تأتي إليَّ* فأجابه يسوع قائلاً: دَعِ الآنَ فهكذا ينبغي لنا أن نُتِمَّ كلَّ برٍّ. حينئذٍ تركه* فلمَّا اعتمد يسوع صعِد للوقت من الماءِ وإذا السمواتُ قد انفتحت له فرأى روحَ الله نازلاً مثلَ حمامةٍ وحالاً عليه* وإذا صوتٌ من السماءِ قائلًا هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت.

تأمل

«فلمّا اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له» (مت ٣: ١٦). لماذا انفتحت السموات؟ لكي تَعْلَمَ أنت أيضاً أنه عندما تعتمد أنت يحصل الأمر نفسه: يدعوك الله إلى الوطن السماوي، ويريد أن يُقنعك بعدم ارتباطك

بـأيّ شيء علـى الأرض. آمِن ولو لم ترَ. فالظهورات الحسّيّة والعلامات السابقة للحوادث الروحية العجيبة تكون من أجل الضعيفي الإيمان، الذين هم بحاجةٍ إلى مثل هذه الظهورات المحسوسة، الذين لا يُعطون أيَّ معنًى للطبيعة اللامادية، بل يُفتشون دوماً عن الأمور المنظورة فقط. لذلك، عليك، ولو لم ترَ بعد ذلك مثل تلك العلامات، أن تقبل بإيمان كلّ ما جرى حتى الآن من البداية. لقد جرى مع الرسل صوت ريح عاصفةٍ، وظهرت ألسنةٌ نارية. هذا لم يحصل من أجل الرسل، بل من أجل اليهود الحاضرين. لكن، حتى وإن لم تجرِ بعد ذلك مثل هذه العلامات الحسّيّة أمامنا، علينا أن نقبل أنّها جرت مرةً هكذا بالفعل. لأنه من أجل ذلك أيضاً ظهرت الحمامة، ودلّت الحاضرين مع يوحنا، كما بإصبع اليد، إلى ابن الله، لكي تعلم أنت أيضاً أن الروح القدس ينزل عليك في وقت المعمودية.

لسنا بحاجة إلى علامات منظورة، بل يكفي أن يتوفّر الإيمان عِوَضاً عنها. العلامات تَرِدُ لا من أجل المؤمنين بل من أجل غير المؤمنين.

لماذا ظهر الروح القدس بشكل حمامة؟ الحمامة

هذا هو ابني الحبيب

«لقد حصل في الأردن ظهور الثالوث الذي هو جوهر فائق اللاهوت، فالآب هتف قائلًا هذا المعتمِد هو ابني الحبيب، والروح كان حاضرًا مع المساوي له في الجوهر الذي تباركه الشعوب وتزيده رفعةً مدى الدهور» (من صلاة السَّحر). اليوم السيد يعتمد في الأردن والآب يقول: «هذا هو ابني الحبيب»، والروح القدس ينحدر بهيئة حمامة. هذا هو الظهور الثالوثي لله والعلني على نهر الأردن، الذي من خلاله يمنح الخليقة خلاصها بدم يسوع المسيح على الصليب. إنَّ دخول الإبن وخروجه من الماء صورة مسبقة للموت والقيامة.

هتف الآب: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت» (مت ٣: ١٧). خاطب الآب ابنه الوحيد بهذه الكلمات، ليس فقط في المعمودية، بل أيضًا في اليوم الذي تجلّى فيه يسوع بمجده على جبل ثابور أمام تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا (مت ١٧: ١–٨). وردت هذه الكلمات أيضًا مرّات متتالية على ألسنة الأنبياء بوحيٍ من الروح القدس متحدّثةً عن المسيح المنتظر. قال النبي إشعياء: «هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي. وضعتُ روحي عليه فيُخْرج الحقَّ للأمم» (إش٤٢: ١). في المعموديَّة (مت ٣: ١٧) كما في التجلّي (مت ١٧: ٥) خرج صوتٌ من السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب». صفة «الحبيب» تعني ذاك الذي أطاع الله حتى الصليب، ولم يدع الموت يجد فيه علَّة ليمتلكه أو يأسره.

لقد سبق العهد القديم وأنبأ عن هذا «الحبيب» مع إبراهيم الذي عاش سنواته مع إمرأته ساره، إلى حين فرحهما بابنهما إسحق الذي قبلاه في شيخوختهما عطيَّة إلهيَّة. طلب الله من إبراهيم ذبيحة محبّة، فصار إبراهيم وإسحق ابنه يمثّلان صورةً حيَّة لعمل الله الخلاصي الحاصل بذبيحة الصليب وإعلان قيامة المسيح المنتظر.

ذبيحة إبراهيم هي الصورة الأوضح لعمل الصليب، حيث قدّم الآب ابنه فديةً لخلاص العالم. حمل إسحق الحطب على ظهره إشارةً إلى حمل الصليب الذي سيُعلَّق عليه إسحق الثاني، أي المسيح، ليرتفع عليه فداءً وخلاصاً للعالم. دخل إبراهيم أقصى تجربة يمكن أن يجتازها إنسانٌ شيخ، وهي تقديم الإبن الحبيب محرقةً بيده. لكنَّه تمتَّع، في وسط هذه التجربة، برؤية ربنا يسوع المسيح قائماً من بين الأموات من خلال علامات ملأت قلبه تهليلاً كما قال الرب نفسه: «أبوكم إبراهيم تهلَّل بأن يرى يومي فرأى وفرح» (يو ٨: ٥٦). إن كان إبراهيم، بالإيمان، انطلق بابنه نحو المذبح، إلّا أنَّه رجع من التجربة يحمل إسحق وكأنَّه قائمٌ من بين الأموات، رمزاً ليسوع المسيح المذبوح والقائم من بين الأموات.

إنَّ الإنسان المؤمن، إذ يدخل مع الله في ميثاق داخل مياه المعموديَّة، يجحد الشيطان وكلَّ أعماله، ويعلن قبوله لله وأعماله الخلاصيَّة وعضويته الحقَّة للكنيسة، وإنتظاره الحياة الأبديَّة، ويجدِّد هذا العهد يومياً بالتوبة المستمرَّة، التي يقول عنها الآباء القديسون إنَّها تجديد لمعموديتنا إذ تعيد الثوب الذي لبسناه عند معموديتنا إلى بياضه بعدما لطّخناه بسواد خطايانا وزلّاتنا.

بعد أن جدَّد الله وعوده مع إبراهيم، رجع إبراهيم إلى غلامَيه وذهب معهما إلى بئر سبع ليسكن

هـنـاك (تك ٢٢: ١٩). حسب تفسيرات الآباء، إن بئر سبع تشير إلى مياه المعمودية، وبالتالي فإن عودة إبراهيم إليها بعدما قدّم الذبيحة هي إشارة إلى عودته إلى الأحضان الأبوية وذلك تجاوباً مع عمل الروح فيه. ليست المعموديَّة طقساً يمارَس في بداية الطريق لينتهي مع انتهاء خدمة المعمودية، إنَّما هي حياة يعيشها المؤمن جميع أيام حياته. يدخل الإنسان إلى المياه ليلتقي مع السيد المسيح المصلوب والقائم من بين الأموات فيلبسه، فيحيا كلَّ أيامه بالروح القدس ينعم بهذه الحياة، كأنَّه يسكن مع إبراهيم في مياه المعموديَّة.

تدعونا الكنيسة في يوم الظهور الإلهي لنكون «أحبّاء» الله، نطيعه كلَّ أيام حياتنا وفق مشيئته هو لا مشيئتنا نحن، كي نهتف في اليوم العظيم مع الرسول بولس قائلين: «أقمتُ الجهادَ الحسن وأكملتُ شوط الحياة وحفظتُ الإيمان» (٢تيم٤ : ٧). هذه هي الثمرة الضروريَّة من ظهور الرب يسوع لخليقته، وإلاَّ لصار ظهوره دينونة.

لمعموديتنا وجهان، الأول هو غفران الخطايا، والثاني هو «تجديدنا» أي دخولنا مباشرة في حياة الكنيسة كأعضاء حيَّة. نحن نعتمد وتُغفر خطايانا وندخل ميدان الحياة الجديدة في التقوى والأعمال الصالحة، لكننا غالباً ما نقع في فخ أهوائنا ولا نحافظ على هذه الحياة الجديدة، فنعيش وكأنَّنا لم نعتمد ولم نلبس المسيح قط.

الظهور الإلهيّ

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: لماذا دُعي عيد عماد المخلّص، وليس عيد الميلاد، بعيد الظهور الإلهيّ؟ لأنّ المسيح ظهر للجميع في عماده وليس في ميلاده. فحتّى ذلك اليوم الذي اعتمد فيه المسيح، قليلون كانوا يعرفونه، وكثيرون كانوا يجهلون وجوده. لا نتعجّب من جهل الكثيرين للمسيح، فيوحنّا السابق نفسه كان يجهل حقيقة المسيح: «أنا لم أكن أعرفه، لكنّ الذي أرسلني لأعمّد بالماء هو قال لي إنّ الذي ترى الروح ينزل ويستقرّ عليه هو الذي يعمِّد بالروح القدس» (يو ١: ٣٣).

كان يوحنّا يعمّد اليهود لمغفرة الخطايا، فلماذا نال يسوع المعموديّة؟ الأكيد أنّ المسيح لم يكن بحاجة إلى معموديّة يوحنّا، فهو «الذي لم يصنع خطيئة ولم يوجد في فمه مكر» (١بط ٢: ٢٢). إذا كان المسيح أتى إلى يوحنّا، لا لطلب غفران الخطايا، فلماذا طلب أن يعتمد إذًا؟ كان ضروريًّا أن يبشِّر بالمسيح من بيت إلى بيت، وأن تتمّ الدعوة لقضيّته في كلّ مكان ومنطقة، وأن يجري التعليم في المجامع بأنّ يسوع هو ابن الله مخلّص العالم.

إستفاد يوحنّا من زحف الجموع من كلّ صوب، وقال: «هذا حَمَلُ الله»، وجاء التثبيت من العلاء بصوت الآب وشهادة الروح القدس الذي ظهر بهيئة حمامة... الله أراد أن يعلن عن ابنه للبشر. أمّا السبب الثاني للمعموديّة فقد أشار إليه يسوع عندما قال: «...يجب أن نكمل كلّ برّ» (مر ١٣: ١٤). البرّ هو تتميم كلّ وصايا الله، وبما أنّ كلّ إنسان يلتزم بتكميل كلّ برّ، جاء المسيح وأكمله.

طائرٌ أليفٌ طاهر. وبما أنّ الروح القدس هو روح وداعةٍ، لذلك تراءى بشكل حمامة. من ناحية أخرى، هذا يذكّرنا بقصّةٍ تاريخيةٍ قديمة، عندما غمر الطُّوفان كلّ المسكونة، وكاد الجنس البشري أن يفنى، كانت الحمامة الطائر الذي بيَّن بوضوح نهاية الغضب الإلهي، حاملةً في منقارها غصن زيتون، كخبر مُفرح يعلن السلام العام. كلُّ ذلك كان رسماً لِما سيحدث لاحقاً. كانت حالة الناس أبشع بكثير من حالتهم الحاضرة، وكانوا يستحقون عِقاباً أكبر. فلِكي لا تيأس أنت الآن، يُذكِّرك هنا بتلك الحادثة القديمة: حين كان الرجاء مفقوداً، وُجد حلٌ وإصلاح. كان الطّوفان في ذلك الوقت تأديباً، أمّا الآن فقد جاء الحلّ عن طريق النعمة والعطية الجزيلة. لذلك ظهرت الحمامة، لا تحمل غصن زيتون، لكنها تشير إلى الذي سيُخلّص من كلّ الشدائد، وتبسط أمامنا رجواتٍ صالحة، لأنها لا تُخرج إنساناً من الفلك، بل تقود بظهوره المسكونة كلها إلى السماء. لا تحمل غصن زيتون، بل البنوة للبشر كلهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

للإطلاع على أخبار الأبرشية:

www.facebook.com/metbei